مدخل إلى التداولية المعرفية

ذهبية حمو الحاج*

شـهد المجتمع اللسـاني العربـي تلقياً لمجموعة مـن المصطلحات المختلفـة التي سـرعان مـا تحوّلت إلى مفاتيـح للنتاج اللغـوي العربي القديـم والحديـث. ومن بيـن المصطلحات التـي عرفت تـداولاً كبيراً خـلال السـنوات القليلـة الأخيـرة مصطلـح «الدراسـات المعرفيـة»، وهـو مصطلح ينضـاف إلى مصطلحات أخـرى قبله لا تقـلّ أهمية مثل السميائيات، والشعرية، والتداولية، والأدب الإلكتروني.

ولقـد وظّف بعض العلماء القدامى فـي مجالَي النقد والأدب بعض العبارات التي تشـير إلى مظاهـر من «المعرفية» بالمعنـى الحديث لهذا المصطلح، والسبب يعود إلى طبيعة الظاهرة الإبداعية والأدبية من جهة كونهـا ظاهرةً نفسـيةً أكثـر منها نصّية، بل إنّ النصّ ليس سـوى تجسـيد مـادّي لما هو نفسـي ذهني. ومن جهة أخرى لم يتقـصَّ العربُ القدامى الظاهـرة النّفسـية في تفسـير الظواهر الأدبية، لأنّ المصدر النفسـي كان هـو بدايـة النّقد لديهـم باعتبـار أنّ أولويات هـذا النّقد كانـت انطباعية. ويظهـر هذا جلياً في كتاب **البيـان والتبيين** للجاحظ، الذي جاء فيه: «... فـإذا كان المعنـى شـريفاً واللفـظ بليغـاً، وكان صحيح الطّبـع بعيداً عن الاسـتكراه ومنزّهـاً مـن الاختلال مصوناً عـن التّكلّف صنـع في القلب صنيع الغيث في التربة الكريمة، ومتى فصلت الكلمة عن هذه الشـريطة ونفـذت من قائلها على هذه الصفة أصحبها الله من التّوفيق ومنحها من التأييـد مـا يمتنع مـن تعظيمها به صـدور الجبابرة ولا يذهـل عن فهمها

عقـول الجهلـة. وقد قـال عامر بن عبد القيـس: «الكلمة إذا خرجـت مـن القلب وقعـت في القلـب وإذا خرجت من اللسـان لم تجاوز الآذان»، فالسـرّ فـي جمال العبارة لا ينبثـق من الكلمـة الجميلة، وإنّما ممّـا تؤديه من معنى في المقام المناسـب، وهـي عودة إلى عمليـات الانتقاء والترتيب، التي يقوم بها العقل البشري.

وبالعـودة إلـى الدراسـات المعرفيـة حديثـاً، نلحـظ أنّ الأزهـر الزنـاد قـد أكّـد علـى مصطلـح «العرفنيـة»، وهـو مصطلـح يختلـف عـن كثيـر مـن المصطلحـات الرائجـة التـي يشـير أغلبهـا إلـى نظريـة المعرفـة أو الابسـتمولوجيا بالاسـتعمال الأكثـر شـيوعاً مـن قبيل: العلـوم العرفانيـة، العلوم المعرفية، علـم المعرفة، علوم الإدراك، العلـوم الإدراكيـة. ولقـد تعامل الأزهـر الزناد مـع مصطلح العرفنيـة في مقابـل المصطلحـات التالية:

- عرفـان: تدلّ علـى معنى الشـكر، شـاعت كثيراً في المجـال التعبّـدي والتصـوّف وفي مجـال البحوث الفلسفية الماورائية،
- معرفـة: تقابل كلاًّ مـن *connaissance* أو *knowledge*، ولها علاقة بمصطلح الإدراك، وهي مصطلحات لم تشهد تطوّراً كبيراً في مفاهيمها ومعالمها.
- الإدراك: مصطلح شـاع كثيراً في الدراسات النفسية التي تربطه بالوعي وباللاوعي.
- العرفنـة: بمفهـوم الزناد هي نشـاط الذّهـن في جلّ مظاهـره، وهـو يتضمـن كلاًّ مـن التذكـر والتعقّـل، وإيجـاد الحلـول المناسـبة للمسـائل المطروحـة والتخيّل والتخطيط والإحسـاس والشعور والتعلّم، والتبرير والتكلّم، والرسـم والرقص، وكلّ ما يمكن تصـوره عن الأنشـطة الذهنية الحسـية العصبية التي يتكفّـل بها الذهـن، وإزاء هذه النشـاطات -حتى لو لـم يتمّ الإلمام بها- وضع مصطلح العرفنة ليطوّرها جميعها.

ولفهـم رأي الزنـاد فـي مصطلـح العرفنـة، لابـدَّ من العودة إلى الجدول الاشـتقاقي لهذا المصطلح؛ إذ يعود إلـى أصل كلمة *cognition* باللغـة الإنجليزية ويقدّم لنا ما يلي: الفعل *cognize to*، اسم الفاعل *cognizer*، والنسبة هي *hability*، *system*، *Faculty* وما إلى ذلك مما يتعلّق بالجذر *cogn* فـي اللغة الإنجليزية، وبنقله إلى اللغة العربية، ويتمّ التعامـل مع كلمـة (عـرف) وبتطبيق الضبط الاشـتقاقي نتحصـل علـى عرفـن (علـى وزن فعلـن) *cogniz to*، المضارع منـه: يعرفن *cognizes*، والمصـدر عرفنة (على وزن فعلنـة) *cognition*، فهو معرفـن *cognizer*، وذو ملكة عرفانيـة *faculty cognitive*، والميتاعرفنـة *métacognition*.

وبالعودة إلى الدراسات المعرفية حديثاً، نلحظ أنّ الأزهر الزناد قد أكّد على مصطلح "العرفنية"، وهو مصطلح يختلف عن كثير من المصطلحات الرائجة التي يشير أغلبها إلى نظرية المعرفة أو الابستمولوجيا

ولعل العودة إلى المعاجم المتخصصة تؤكّد على وجود تداخل واشتراك مفاهيمي واصطلاحي بين *Cognition* و *Knowledge* بالخصوص، فقد تُرجما عند أغلب الباحثين بمصطلح «المعرفة»، ويمكن أن نُمثّل لذلك بـ:

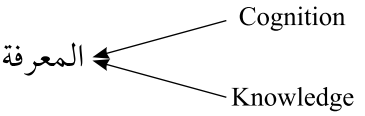

لقد اهتمت المعاجم الفلسفية بتحديد مفهوم المعرفة في مقابل *Knowledge*، في حين اهتمّت المعاجم المتخصّصة بعلم النّفس وفروعه بمصطلح *Cognition*، ورغم هذا الاختلاف في التّوجّه، إلاّ أنّ الكلمتين تحملان دلالة واحدة، وهي دلالة المعرفة أو (*To know*) رغم انحدارهما من أصلين مختلفين هما (اللغة اللاتينية واللغة الجرمانية) اللتان انبثقتا من اللغة الهندية-الأوروبية، التي تتضمن الجذر*gno*، وتعني (*know*) بالإنجليزية أو (عرف) بالعربية؛ إذ اعتمدت اللغة اللاتينية على هذا الجذر واشتقّت منه *Noscere* وهو أصل كلمة *Cognition*.

وعلى ضوء هذا يمكن الوصول إلى نتيجة مفادها أنّ المعاجم بأنواعها المختلفة، كشفت عن منظورين مختلفين ومتكاملين في الآن ذاته، فالمعرفة نشاط جامع، وهي نتاج ذلك النّشاط، لذلك قدّمت لها عدّة أوصاف تُجسّد كلّها مفهوم الاتساع والشمولية. ويبدو أنّ تفضيل مصطلح «عرفن» على كلمة «فكّر» أو «عرف» عند الزّناد، يعني الإلمام بعمليات جدّ معقّدة لفهم العالم الإنساني، وهو يختلف عن التفكير الذي يبدو مرتبطاً بعمليات محدّدة، لأنّ التفكير ما هو إلاّ جزء من المعرفة والآليات المعرفية. وعلى هذا يعتقد الزناد أنّ العرفنيات، التي وصلتنا قد فهمت بتصورات أرسطية ونفسية قديمة، وكان تلقيها على هذه الشاكلة سواء عند العرب أو عند الغرب، دون انتباه إلى خروج العرفنيات عن هذا الإطار.

لقد أدلى العرب بدلوهم في مجال المعرفة الإنسانية، وإن ظهرت جهودهم في العصر الحديث لدى بعض الباحثين مرتبطة بالفلسفة الوجودية وبالكون، فإنّ جوهر المعرفة كان محوراً مركزياً بالنسبة إلى العرب في العصر القديم؛ إذ تشكّلت أعمالهم الرائدة انطلاقاً من خلفيات أسهمت بشكل أو بآخر في بلورة الفكر والمعرفة الإنسانية، والأمر المدهش أنّ المحدثين العرب في بحوثهم المعرفية نجدهم يرجعون إلى أسلافهم يتقصّون رؤاهم وأفكارهم ومنابع معرفتهم بشغف كبير، ومن بينهم:

- زكي نجيب محمود في كتابه **نظرية المعرفة**، تناول طبيعة المعرفة ومصادرها وحدودها وإمكاناتها، وقاربها حسب اتّجاهات الفلاسفة الغربيين ومذاهبهم المختلفة.
- فؤاد زكريا في كتابه **نظرية المعرفة والموقف الطبيعي للإنسان**، يطرح إشكالية موقف الإنسان من العالم الخارجي مقارنة بالفلسفات المثالية التي تؤمن بالعالم الذاتي.
- محمود زيدان في كتابه **نظرية المعرفة عند مفكري الإسلام وفلاسفة الغرب المعاصرين**، قام بنقد

لقد اهتمت المعاجم الفلسفية بتحديد مفهوم المعرفة في مقابل Knowledge، في حين اهتمّت المعاجم المتخصّصة بعلم النّفس وفروعه بمصطلح Cognition، ورغم هذا الاختلاف في التّوجّه، إلاّ أنّ الكلمتين تحملان دلالة واحدة

المسائل الأساسية في نظرية المعرفة عند الفلاسفة المحدثين.

- محمود قاسم في كتابه **نظرية المعرفة عند ابن رشد وتأويلها لدى توماس الإكويني**، بيّن أنّ نظرية المعرفة مرتبطة بنظرة الإنسان إلى الكون وخصّ بالذّكر الفلاسفة المسلمين، واستطاع أن يكشف عن أصالة ابن رشد ونقل الإكويني في معظم الموضوعات الفلسفية.

ومن الملاحظ أنّ نظرية المعرفة وإن لم تطرح في الفلسفة القديمة بصورة مستقلّة، إلاّ أنّها كانت مرتبطة في كلّ أبحاثها بالفلسفة وفروعها، فنجد الجدل عند أفلاطون، وقضايا ما بعد الطبيعة عند أرسطو، فقد عولجت مشكلة طبيعة العقل الإنساني وعلاقته بالجسد والبعد الذاتي للحياة العقلية، وكلّ ما يتبلور في حدود العقل الإنساني؛ إذ تداخلت مباحث فلسفة العلوم مع بعض موضوعات نظرية المعرفة، من حيث إنّ الفلسفة تتناول تحليل مناهج البحث في العلوم المختلفة ونقدها، وإمكانية الوصول إلى نتائج فلسفية من النظرية العلمية. وجاء العصر الحديث ليحدث تغييراً في الفلسفة المتعامل بها وجعل لمشكلة المعرفة مكانة خاصة؛ إذ هناك من ربطها بالوسيلة، يقول أحمد عبد المهيمن: «تنحصر مهمة المعرفة فيالوسائل التي يتمّ بها تحصيل العلم»،[1] ذلك أنّ الإنسان مرتبط بالعالم، الذي يحيط به، لا سيما ما يكتشفه من وسائل لتسهيل حياته العلمية واليومية.

وبهذه النظرة العربية والجهود المتميّزة في مجال المعرفة، يمكن القول إنّ الإنسان كان منذ أوائل عهده يسعى إلى فهم طبيعة المعرفة التي يملكها ومصادرها المختلفة، وكانت أول بادرة لذلك مع الفلاسفة. ومن ثمّ طرحت أسئلة كثيرة تصبو إلى تحديد مكامن القدرة اللغوية لدى الإنسان وكيفية اكتسابها، وكيفية فهم العالم المحيط بنا، وكيف يمكن للإنسان الاحتفاظ بكثير من الذكريات والصور والأرقام، وكانت الإجابة عن هذه الأسئلة بشكل تأملي وتجريدي. وعندما استعصى الأمر على بعض العلوم بشأن إيجاد أجوبة للأسئلة المطروحة حول العقل الإنساني والحيواني وكذا الآلي، استدعى الأمر الاستعانة بالعلوم الأخرى، وبذلك اجتمعت العلوم النظرية والتطبيقية للبحث فيما يعرف بالمعرفية، وبذلك تحدّدت معالم البحث في العلوم المعرفية التي ألمّت بعلم النفس، واللسانيات، والذكاء الاصطناعي، وفلسفة العقل، وعلوم الأعصاب.

البحث المعرفي عند الغرب

يعود ميلاد العلوم المعرفية إلى ظهور التداولية، فقد قام «أوستين» *Austin.L.J* بإلقاء محاضراته (محاضرات

وليام جيمس) سنة ١٩٥٥، وفي سنة ١٩٥٧ نُشرت مقالات كانت بمثابة الدعامة الأساسية لانطلاق العلوم المعرفية، ومن هذه المقالات نجد مقالاً لـ«ألان نيوال» *Newell Allen*، ومقالاً آخر لـ«هربرت سيمون» *Herbert Simon* حول الإثبات الآلي للبراهين الرياضية، وهو ما يدخل في مجال الذكاء الصناعي. كما قُدّمت بعض المداخلات في إطار ندوة عقدتها جامعة مساشوستس *Massachussetts* للتكونولوجيا تمخّضت عنها النقاط التالية:

- فكرة تشومسكي حول الجانب التوليدي العقلي للمسائل اللغوية، الفكرة التي زحزحت كيان المدرسة السلوكية بزعامة بلومفيلد.(٢)
- فكرة "الذاكرة" التي عرضها جورج ميلر *Miller.A.G* باتخاذ المنهج التجريبي غير السلوكي خروجاً عن المدرسة السلوكية المعروفة.

وقد كانت هذه الأفكار التي تحوّلت إلى أبحاث مهمَّة مواكبة للأعمال التي قام بها فلاسفة اللغة: أوستين، وجرايس *Grice.P.J* وسورل *Searle.J* حول أفعال اللغة. إنّه من الواضح جدّاً أنّ الإشكالية كامنة في فهم الآليات التي تسمح للإنسان بتكوين معلوماته وذلك بالرجوع إلى مصادر محدّدة، ومن بلورتها بشكل يجعل المتلقي خاضعاً لها منتجاً ما يتناسب وحالات مخصوصة. ويعدّ الذّهن باعتباره جوهر الدراسة المعرفية ذلك الجهاز الفطري الذي يمكننا من إدراك العالم المحيط بنا وفهمه والتصرّف فيه بطريقة إرادية عبر مجموعة من الأجهزة التي أنعمنا الله بها كالسمع والبصر واللمس وغيرها من الحواس، حيث تسهم في نقل المعلومات إلى الذّهن مقرّ الفهم والتأويل، يقول أحدّ الباحثين: «... التصوّر العقلاني يقضي بأنّ الإنسان يولد مزوداً بجهاز فطري مخصوص تخصيصاً عالياً يمكنه من اكتساب المعارف»،(٣) فمن اهتمامات الكائن البشري محاولة فهم العالم الذي يعيش فيه، وذلك عن طريق التمثّل والتخزين في الذّاكرة؛ إذ يتمّ تسجيل المعلومات وتخزينها في الذّاكرة عبر العمليات المنظمة والمقررة، يقول عبد الإله سليم: «لا يكتفي الكائن البشري بالميل إلى احتواء العالم باعتباره موضوعات، بل يتعدى ذلك إلى تخزين الأحداث والانفعالات والموضوعات المجرّدة.»(٤)

ويبدو أن الجانب الخفيّ من الإنسان هو المسيِّر الحقيقي للعمليات التي تسمح له بإدراك العالم عبر تخزين المعلومات في الذّاكرة، لأنّه من دون ذلك تصبح عملية الفهم والتصرّف صعبة جداً، فلا غرو من القول إنّ العقل الإنساني هو العنصر الوحيد الذي يُعتمد عليه لخلق التفاعلات الاجتماعية والتحكّم فيها، إضافة إلى ما يميّز المجتمع عبر حقب زمانية مختلفة، يقول أنجوس جيلاني وأوسكار زاريت: «هذا الجهاز الفطري، هو ما

والأمر المدهش أنّ المحدثين العرب في بحوثهم المعرفية نجدهم يرجعون إلى أسلافهم يتقصّون رؤاهم وأفكارهم ومنابع معرفتهم بشغف كبير

يسمى بالذّهن، الذي يمكننا من رؤية العالم والتّصرّف فيه بطريقة إرادية وبجميع الحواس، كالسمع والبصر واللمس، وغيرها من الحواس الأخرى، التي تحدث في الذّهن، وقل ذلك في التفكير والتّذكّر والتّخطيط، فهي كلها نابعة من الذّهن، كما يشتمل هذا الأخير على الإحساس بالذات والإحساس بحرية الإرادة.»[٥]

لقد أبرز هرمان إبنجهاوس *Ebbinghaus .H* من خلال أبحاثه ودراساته دور العمليات المعرفية في تأسيس علم النفس المعرفي، إضافة إلى أعمال جون بياجيه *Piaget.J*، التي دارت حول النمو المعرفي لدى الطفل، وأعمال فون نيومان شانون *Chanon Newman.F*. ويعدّ مرور علم النفس المعرفي بمحطات كثيرة إسهاماً كبيراً في تبلور الدراسات المعرفية، التي ظهرت بشكل جدّي في ١٩٩١ وشملت علوماً من قبيل علم الحاسوب، العلوم العصبية، والذكاء الصناعي.

لم تنشأ المدرسة المعرفية من عدم، ولكنّها انبثقت من المدرسة السلوكية الأمريكية، التي عاشت في النصف الأول من القرن العشرين، إلى أن أتى تشومسكي بانتقاداته للناحية الشكلية والسطحية، التي التزم بها سكينر *Skinner.F.B* في تفسيره للغة الإنسانية وأسس تفكيره على ثنائية المثير والاستجابة وكذا التعزيز، وهي مفاهيم رفضها تشومسكي لاعتقاده أنّ الإنسان يولد بقدرة طبيعية على اكتساب اللغة، وهي قدرة هائلة ومعقّدة إذا ما قورنت في السنوات الأخيرة بالحاسب الآلي والذكاء الاصطناعي، علماً أنّ العقل يحتوي كلّ شيء في الكون المادي، وبما أنّه يتكوّن من

يعود ميلاد العلوم المعرفية إلى ظهور التداولية، فقد قام "أوستين" J.L.Austin بإلقاء محاضراته (محاضرات وليام جيمس) سنة ١٩٥٥، وفي سنة ١٩٥٧ نُشرت مقالات كانت بمثابة الدعامة الأساسية لانطلاق العلوم المعرفية

صورة الكون أو جزء لا يتجزّأ منها، فإنّه هو الذي يدرك خصائص ومميّزات العناصر داخل الكون،[٦] وهو الأمر الذي لم يشد انتباه النزعة السلوكية.

وعلى هذا الأساس ظهرت مناظرات بين طريقة معالجة الإنسان للمعلومات وطريقة المعالجة الآلية، التي اكتشفها هو بذاته؛ فقد ذهب بعض الباحثين إلى التمثيل العقلي، الذي كان من اهتمامات علم النفس المعرفي، وبمصطلحات الزناد فإنّ هذا العلم، ورغم عدم الاتفاق على المصطلح إلاّ أنّه يغطي عمليات العرفنة وأبنيتها من جانب الإدراك والانتباه والذاكرة واللغة والقصد والنشاط الفكري واللغوي.[٧] ويمكن الحديث هنا عمّا يسمى بـ»الثورة المعرفية»، التي ظهرت في منتصف سنة ١٩٥٠م، ودعيت بالثورة لأنّها رافضة لما جاءت به السلوكية مع واطسن J.B.Watson (١٨٧٨-١٩٥٨)، من حيث التخلي المطلق عن المنهج الذهني القائم على الاستبطان أساساً، وفي الآن ذاته الدعوة إلى العناية بالسلوك الظاهر والاكتفاء به، وذلك يعني إلغاء البعد الذهني في أشكاله المختلفة، وهو ما يمثّل الجانب

السلبي فيها، في حين كان للجانب الإيجابي دور كبير في المجال اللساني، ويمكن القول إنّ هذا المنعرج في تاريخ الدراسات اللغوية سمح بالانتقال من تاريخ اللغات إلى معالجة الاستعمال اللغوي معالجة إجرائية، يقول تشومسكي في هذا الصدد: «إنّ الثورة المعرفية قد جدّدت وأعادت تشكيل كثير من تبصرات وإنجازات ومآزق ما يمكن أن ندعوه «الثورة المعرفية» للقرن السابع عشر والثّامن عشر، التي كانت جزءاً من الثورة العلمية، التي غيّرت فهمنا للعالم على نحو جذري للغاية.»[٨]

واكب تطوّر السلوكية في أمريكا نشوء علم النفس المعرفي، ويبرز ذلك في أعمال فريديريك بارتلات *Bartlet.F* حول الإدراك والتصوّر الذهني، وما هذه الظواهر إلا انعكاس لعمليات تحيل عادة إلى التجارب الماضية، ومن أشهر الأعلام الفرنسيين في هذا المجال نجد جون بياجيه بأعماله المؤسسة على الذكاء عند الطفل، كما نجد فيقوتسكي *Vigotsky.L* من خلال استنتاجاته أنّ مختلف العمليات النفسية هي نتاج اجتماعي وليست نتاجات فكرية صرفة، ذلك أنّ الطفل يتعلّم عبر مراحل مختلفة، وعلى هذا الأساس، تبحث العلوم المعرفية في الذكاء الإنساني وماهيته وكيفية اشتغاله وعمله (ما يفعل) وهو ما يعرف بـــ المعرفية (*Cognition*).

نشأت العلوم المعرفية بإسهام باحثين من مشارب مختلفة إلى أن تأسست بشكل حاسم وذلك في السبعينات من القرن الماضي، حيث أُنشئت جمعية وأُصدرت مجلة في المجال ذاته، إضافة إلى الدور الذي لعبته الحرب العالمية الثانية في مثل هذه الدراسات؛ إذ بحكم التغيرات الطارئة على خريطة العالم بأكمله، وبحكم الحاجة إلى تقنيات تسمح بإيصال المعلومات بشكل سريع وفعال تساعد على خوض المعارك وإدارتها، ظهرت هذه العلوم المعرفية، التي أرادت تجاوز القيود النظرية والمنهجية، التي فرضتها المدرسة السلوكية، وتمخّض عن ذلك علوم ركّزت على معرفة الإنسان لذاته، ومعرفة للآلة التي اكتشفها، ومعرفة العالم الذي يحيط به.

وعليه انتقلت الدراسات من بحث عن المعرفة إلى البحث عن طبيعة العقل، ونظراً إلى تزامن الأبحاث المعرفية وظهور الإعلام الآلي، انطلقت الدراسات من فرضية مفادها التماثل بين المخ والحاسوب، ورغم الإصرار على أنّهما يقتفيان إجراءات مختلفة حيث تكون الآلة مجرّد برنامج يضعه الإنسان، وفي هذا الصدد كانت التجارب التي قام بها تورينغ *Turing* [٩] بغرض بناء آلة ذكية منطلقاً لكثير من الدراسات والمقاربات التي كان هدفها الكشف عن مظاهر وتجليات الذكاء عند الإنسان وفي نطاق الآلة، ومهما وُجدت الفرضيات القائلة بالتماثل التقريبي إلاّ أنّ المعضلة التي انتبه إليها الباحثون هي محاكاة التفكير الإنساني، فقد أكّدوا على ضرورة أن تتجاوز العلوم المعرفية والذّكاء الصناعي الحاجز الدلالي،[١٠] وتسبب مثل هذا الإشكال في ظهور أبحاث تجمع بين ما هو نفسي وما هو اجتماعي، ومن بين الأبحاث نجد تلك التي كان اكتساب الطفل

للغة محل اهتمامها، إضافة إلى الدراسات التي أسهمت في تطوير القدرات المعرفية واللغوية لدى الإنسان. وبذلك ظهر ما يدعى بعلم النفس المعرفي واللسانيات مع تشومسكي الذي انطلق من مفهوم الإبداع وطوّر المقاربة العقلية، فمخ الإنسان آلة معقّدة تتطلب البحث في الطريقة، التي تتكيّف بها مع المحيط، الذي يضمّ كائنات أخرى بشرية وحيوانية. يقول تشومسكي: «إنّ الأنظمة الإدراكية نشأت عن تفاعل التّجربة مع طريقة الكائن الحيّ في بنائها ومعالجتها، بما يشمل الآليات التّحليلية والمحدّدات الجوهرية للنّضج والنّموّ الإدراكي....»[١١]

لقد قدّمت الدراسات المعرفية توضيحات حول الخلل الذي يمكن أن يصيب بعض الآليات المرتبطة بالمعرفة الاجتماعية، كما خاضت المعرفية موضوعات كانت إلى وقت قريب من ميدان الفلسفة وأهمّها ما يرتبط بالعقل والجسد من علاقة، وكذا موضوع الوعي، مما يضفي إشكالية مميّزة على الأبحاث؛ إذ السؤال المطروح مرتبط بالجدلية القائمة بين العقل واللغة، وهل الاتجاه كان من فلسفة اللغة إلى فلسفة العقل أم العكس؟

وفي هذا الإطار نجد استفادة علوم الأعصاب من أبحاث علماء النفس، يظهر ذلك من خلال تشريح المخ لمعرفة الوظائف الذهنية، التي تنبّأ بها العلماء النفسانيون في العقود السابقة. كما استطاعت علوم الأعصاب المعرفية خوض الأسس العصبية للمعرفة الاجتماعية؛ إذ خلصت الأبحاث إلى تحديد الدور، الذي تؤديه بعض المناطق في المخ في العلاقات الاجتماعية والتفاعل مع الآخرين، وما توصلت إليه علوم الأعصاب من نتائج ساعدت علماء النفس والفلاسفة وغيرهم من العلماء على فهم الطريقة التي يشتغل بها الذّهن.

إنّ العلوم المعرفية تسعى إلى دراسة العمليات الذهنية والمعرفية والتعلُّمية دراسة علمية، ومن أجل هذا ترتكز العلوم المعرفية على علم النفس المعرفي، واللسانيات والذكاء الصناعي، وعلوم الأعصاب والإبستمولوجيا. وفيما يتعلّق بالتصوّر التعلُّمي نجد ما يدعى بـ: المعرفية والترابطية؛ حيث لا يمكن تجاهل النظريات الأساسية للتعلم التي سبقت المقاربة الجمعية *Collective* المتعدّدة التخصصات للعلوم المعرفية، فقد وجدنا السلوكية التي تدرس العلاقة بين المثير والاستجابة، والتعلّم الذي ينجز بفضل هذه الثنائية ما هي إلاّ عملية ترابطية، علماً أن بعض الباحثين بدأوا يؤكدون أنّ مشكلة السلوك اللغوي، ينبغي أن تحتلّ مكانتها في صميم مركز البحث النّفسي.[١٢] كما نجد النظرية الشكلية، التي تقول إنّ التفكير يعني التعرّف على الشكل، إذ تعتبر هذه النظرية أنّ الأشكال بنية، وحلّ الإشكال انتقالاً من بنية إلى أخرى عن طريق إعادة البناء، فهي إعادة تنظيم تتعلّق

ويبدو أن الجانب الخفيّ من الإنسان هو المسيِّر الحقيقي للعمليات التي تسمح له بإدراك العالم عبر تخزين المعلومات في الذّاكرة، لأنّه من دون ذلك تصبح عملية الفهم والتصرّف صعبة جداً

أساساً بالحقل الإدراكي. ولقد طوّر بياجيه النظرية الإجرائية، ومثّلت توجّهين:

- من جانب، فهي نظرية معرفية بحيث ترتكز على نشأة العمليات الذهنية والمعارف التي تؤديها.
- ومن جانب آخر، هي نظرية بناوية، لأنّ جميع المعارف تتشكّل إثر التبادلات اللهجية، التي تتمّ بين الفرد والمجتمع، وتتشكّل شيئاً فشيئاً بالارتكاز على المعارف السابقة وباستحضار المعارف الجديدة.

لقد حاول بياجيه الاشتغال على التوجه البنوي وذلك يعني تأطير النظريتين: السلوكية ونظرية الشكل؛ إذ يقترح أن يتعامل الفرد مع المحيط عن طريق مجموعة من البنى، التي تتعقّد وتكتمل مع هذه التفاعلات. وفي هذا الإطار يتحدّد الذكاء باعتباره ميلاً عامّاً في إعادة بناء داخلية للمكتسبات غير الثابتة، التي أنشأت المجتمع والمحيط، إذاً فهي تتشكّل وفقاً لتنظيم البنى الذّهنية.

إنّ الانتقاد الموجه إلى جون بياجيه يتمثّل في غياب كلّ مفهوم للتفاعل الاجتماعي؛ إذ حسب أصحاب المذهب البنائي التفاعلي المرتبط بالنظرية المعرفية الاجتماعية، فإنّ نموّ الذكاء وتطوّره لا ينفصل عن العملية المعرفية الاجتماعية التي تستوحى من نظرية فيقوتسكي المتعلقة بالعمليات النفسية العليا. لقد لاحظ فيقوتسكي أنّ للعمل الذهني شكلين: العمليات الذهنية الأولية والعمليات الذهنية العليا، فالعمليات الأولى تنسب للعامل الوراثي والنموّ البيولوجي، وإلى تجربة الطفل في محيطه، في حين نجد العمليات الثانية تتأسس على:

- المبدأ الأوّل: يتمثّل في العلاقات بين التربية والتعليم والتطوّر.
- المبدأ الثاني: يتمثل في دور الوسائط الاجتماعية في تحديد العلاقات بين الفرد والمحيط الذي يعيش فيه، وفي النشاط النفسي الداخلي للفرد.

إنّ الحديث عن الناحية النفسية الداخلية من حيث الدور المؤدى في إدراك العالم والنفس في الآن ذاته، يسمح لنا بالنظرة الإجمالية حول المعرفة التي كانت مرتبطة بغيرها من علوم الفلسفة، ولهذا لم يخصص لها (كنظرية) مجالاً للبحث، فقد ربطت عند أفلاطون بالجدل، وعند أرسطو بالدراسات ما بعد الطبيعة. والبحث في مشكلة العقل البشري وعلاقته بالجسد وبالمحيط هو بحث معرفي وذلك في حدود الوسائل التي يوفّرها لنا العقل البشري.

ظهرت نظرية المعرفة كعلم مستقل بذاته عند الفيلسوف الإنجليزي جون لوك *Locke.J*، وذلك من خلال كتابه **مبحث في الفهم الإنساني**، الصادر في ١٦٩٠م، وكان هذا الكتاب أوّل بحث علمي منظّم يتناول بالفحص والدَّرس أصل المعرفة وماهيتها وحدودها

ويمكن الحديث هنا عمّا يسمى بـ"الثورة المعرفية"، التي ظهرت في منتصف سنة ١٩٥٠م، ودعيت بالثورة لأنّها رافضة لما جاءت به السلوكية مع واطسن

ودرجة اليقين منها،[١٣] والعودة إلى مثل هذه المفاهيم قد يحيلنا إلى مصطلح آخر وهو الإبستمولوجيا.

نظرية المعرفة والإبستمولوجيا

تنظر نظرية المعرفة في مبادئ المعرفة الإنسانية وطبيعتها ومصادرها وحدودها وهو ما يتبلور في فكرة البحث في العلاقة بين الذات المدركة والموضوع المدرك.[١٤] أطلق لفظ «المعرفة» عند المحدثين على معنيين:

١. الفعل العقلي الذي يتمّ به إدراك الظواهر الموضوعية أيّ عملية الإدراك.
٢. الفعل العقلي الذي يتمّ فيه حصول الشيء في الذّهن؛ أي نتيجة عامل الإدراك.

الإبستمولوجيا: مصطلح مشتق من الكلمة اليونانية *Epistémé* التي تعني المعرفة أو العلم، ولفظ (*Logos*) التي تعني العلم، ويتشكّل بذاك مصطلح «علم المعرفة»، الذي يهتمّ بالدراسة النقدية لمبادئ العلوم المختلفة، وتحديد أصولها المنطقية وقيمتها. أوّل من استعمل مصطلح إبستمولوجيا يعود إلى الفيلسوف الاسكتلندي جميس فرديريك فرييي *Ferrier.F.J* وذلك في كتابه

إنّ العلوم المعرفية تسعى إلى دراسة العمليات الذهنية والمعرفية والتعلُّمية دراسة علمية، ومن أجل هذا ترتكز العلوم المعرفية على علم النفس المعرفي، واللسانيات والذكاء الصناعي، وعلوم الأعصاب والإبستمولوجيا

سنن الميتافيزيقا سنة ١٨٥٤م، وذلك عندما ميّز بين الوجود الأنطولوجي والإبستمولوجيا، التي تضاهي نظرية المعرفة في اللغة الإنجليزية وهذه العلاقة تتحدّد بين النوع والجنس، حيث إنّ الإبستمولوجيا تبحث في المعرفة العلمية، في حين تبحث نظرية المعرفة في مبادئ المعرفة. والإبستمولوجيا في اللغة الفرنسية تختلف عن نظرية المعرفة؛ إذ يحوّل جنس المعرفة إلى نوع واحد فقط وهو المعرفة العلمية، وبذلك تتبوّأ مكانة في العلوم الحديثة ومنها اللسانيات، وعلم النّفس.

لقد حُدّدت المعرفية أو ما يعرف بـــ *Cognition* على أنّها القدرة على المعرفة، أو العمليات الذّهنية الموظّفة بممارسة هذه القدرة. وفي هذا الإطار نجد مرادفات المعرفية تتمثّل في: المعرفة، المعارف، التوغّل، التعرّف. وقد تحتمل كلمة «عرف» عدّة معان منها: علم، اطّلع، أدرك، تنبأ، أبلغ، سمع، ومن الملاحظ أنّ هذه الكلمة اتخذت ملامح التضمين بصفة حاسمة، لأنّ كلاً من الاطّلاع والإدراك والتنبّؤ ترتبط بالقدرات الضمنية التي يتمتّع بها الإنسان، ويمكن من خلالها وبفضلها التصرّف في حياته ومواجهة المجتمع الذي يعيش فيه، فالمعرفية مصطلح فلسفي، وهو فعل ذهني يسمح لنا باكتساب المعارف. والإشكال الأساس بالنسبة إلى الميتافيزيقا متمثّل في تقديم نظرية علمية جيّدة للمعرفة الإنسانية، وتفسير كيف للإنسان القدرة على المعرفة.

ومن الجانب الإتيمولوجي تتحدّد المعرفية في الإسبانية القديمة، وفي الإيطالية، وفي اللاتينية كونها المصطلح العلمي لتعيين آليات التفكير، وتاريخياً

تحدّدت المعرفية في تعيين قدرة الفكر الإنساني على التعامل مع المفاهيم، ولكن في العصر الحديث استعملت كلمة المعرفية لتعيين مسار معالجة المعلومة من المستوى الراقي مثل الاستدلال، الذّاكرة، اتخاذ القرار والوظائف التنفيذية، ولكن أيضاً لتعيين مسارات أولية كالإدراك، القدرة *Competence* وكذلك الانفعالات، وهو ما يناقض ما كان معروفاً قديماً عن التناقض الموجود بين الانفعالات والذّكاء. وغالباً ما يتجاوز هذا التعريف إطار المعرفة الإنسانية لإدماج كلّ سيرورات الذّكاء عند الحيوان وسيرورات الذّكاء في خضم الأنظمة الصناعية مثل الحواسيب.

ومن خلال المعاجم لُوحظ ارتباط مفهوم المعرفة بالبحث الفلسفي، وذلك فيما عُرف بنظرية المعرفة أو الابستمولوجيا، التي تبحث في أصل المعرفة وطبيعتها من زاوية: ماذا نفعل لنعرف؟ وما الذي يمكننا معرفته عن هذا الكون؟ كما لُوحظ ارتباط مفهوم المعرفة بالجانب الذّهني انطلاقاً ممّا أفرزته البحوث الفلسفية. ولو جمعنا بين الجانبين، لقلنا إنّ تداخل العلوم واشتراكها في معالجة الظواهر سمحت بتمخّض الحدود بين ما يمكن الرّجوع إليه أثناء التّعلّم والإدراك، وتتميّز بقابليتها للتمثيل، والتنظيم، والتّخطيط، والتّرميز، والتّخزين، في حين تتمثّل الأجزاء الأخرى في المظاهر الأخرى، التي يقوم بها الذّهن، وتتمثّل في الآليات والعمليات الذّهنية.[١٥]

ومهما أسهبنا في هذه الميزات، يبدو من خلال دراسات أُجريت في هذا المجال أنّ المصطلحات تحمل الدلالة ذاتها، إلاّ أنّ مصطلح *Cognition* يعبّر

إنّ الإبستمولوجيا تبحث في المعرفة العلمية، في حين تبحث نظرية المعرفة في مبادئ المعرفة

دائماً عن نتيجة التّحويل، الذي تمّ على مستوى هذه المصطلحات، وبالتالي تكون هذه الأخيرة مترادفة رغم أصولها المختلفة.

إنّ دراسة المعرفة الإنسانية المؤسسة على الفلسفة التقليدية للإنسان العادي والدراسة التي استوحت معالمها من الذّكاء الآلي اهتمت بالوظائف الكبرى، التي يقوم بها الذّهن البشري وإهمال كلّ ما يتعلّق بالانفعال، والحدس، ورغم انطلاق العلوم المعرفية من هذا الإطار المفهومي، فإنّها قامت بإبراز التفاعلات المتعدّدة التي يمكن أن تتكوّن مثلاً بين الانفعال والذاكرة وبين الحدس والاستدلال، كما رفض التطوّر المنجز في دراسة السلوك الحيواني من طرف علم الأخلاق المعرفي هذا التصوّر حول المعرفة الإنسانية، وذلك بإبراز أنّ الحيوانات أيضاً بإمكانها الاستدلال والتذكّر، وفي المقابل فإنّ هذا السلوك سمح بالإحاطة الجيّدة للكليات المعرفية المتعلّقة بالإنسان بالخصوص.

ومن نتائج التفاعلات الحاصلة بين العلوم في خضّم ما يدعى بالمعرفة هو أن تعبّر بصفة جدّ هامة عن الطريقة التي تنتظم من خلالها موضوعات البحث في العلوم المعرفية، وهذه الأخيرة لا تنبني إزاء مختلف موضوعات الدراسة التقليدية للعلوم المشكلة لهذا الميدان البحثي

(الأعصاب والمخّ خاصة بعلوم الأعصاب، والسيرورة الذهنية خاصّة بعلم النّفس)، ولكن غالباً إزاء الوظائف المعرفية، التي نرغب في عزل بعضها عن بعض. وسوف يهتمّ الباحثون من مشارب مختلفة وبصفة جماعية بالذاكرة أو باللغة، وهذا التحوّل يبرز في ظهور مصطلح العلوم المعرفية، التي تطالب بالنظر إلى هذا الميدان المتعدد التخصصات على أنه علم بأتمّ معنى الكلمة.

يمكن القول إن القرن العشرين كان قرن انتشار واسع لمختلف المعارف والعلوم (علم النفس، علم الاجتماع، علم الأعصاب) أو ما يعرف بالعلوم المعرفية، فقد شكلت ردّاً على السلوكية في الخمسينات، وكانت ترفض وتضع جانباً كلّ ما يظهر ويخضع للملاحظة. لقد وضعت العلوم المعرفية نصب أعيننا فكرة أساسية تتمثّل في توضيح كيفية اشتغال العقل، وبيان كيف يكتسب العقل البشري المعارف ويطوّرها ويستعملها اعتماداً على الحالة الذّهنية. ومن بين المناهج التي تبنت هذه النّظرة، وكان لها أهمية في تحليل الخطاب نجد التّداولية، التي اعتمدت على مفاهيم ونهلت من علوم مختلفة مستغلةً إياها في تحليل الأقوال والوقوف على مكامنها.

كنّا قبل القرن العشرين نشهد ما يسمى بالاختصاص؛ إذ كلّ علم يحاول اجتزاء النّظريات بأخذ ما يناسب ويصلح، دون فهم في الغالب عند المبتدئين لاعتقادهم أن العرفنيات شعار يرفع، ولكن بحلول القرن العشرين ازدهرت هذه الدِّراسات حيث نجد الأزهر الزناد يقول: «العلوم العرفنية جملة من العلوم تدرس اشتغال الذّهن والذّكاء دراسة أساسها تظافر الاختصاصات، تسهم فيها الفلسفة واللسانيات والأنثروبولوجيا، وتدرس العلوم العرفنية الذّكاء عامة والذّكاء البشري وأرضيته البيولوجية، التي تحتمله، وتعني كذلك بمنولته وتبحث في تجلياته النّفسية واللغوية والأنثربولوجية.»[١٦] إنّ المتمعّن في هذا التعريف تشدّه عبارة «تظافر الاختصاصات» بمعنى التداخل والأخذ من مختلف الاختصاصات، والهدف واحد وهو تفسير كيفية اشتغال الذّهن عامّة والبشري منه على وجه الخصوص.

ويضيف أيضاً أن علم العرفنة حقل جديد يجمع ما يعرف عن الذّهن في اختصاصات أكاديمية عديدة: علم النّفس واللسانيات والأنثروبولوجيا الحاسوبية، وهو ينشد أجوبة مفصّلة عن أسئلة من قبيل: ما هو العقل؟ كيف نعطي لتجربتنا معنى؟[١٧] وإذا ما حاولنا استقصاء هذا الجانب (الجانب المعرفي) لوجدناه قديماً قدم المعرفة والتّفلسف؛ إذ نجد نظرية المعرفة قد اهتمت قديماً بالتمييز بين ما يدركه العقل إدراكاً بديهياً، وبين ما يتمّ اكتسابه عن طريق التّجربة. وإذا ما رجعنا إلى تشومسكي نلحظ وجهة نظره عن العلوم المعرفية،

لقد وضعت العلوم المعرفية نصب أعيننا فكرة أساسية تتمثّل في توضيح كيفية اشتغال العقل، وبيان كيف يكتسب العقل البشري المعارف ويطوّرها ويستعملها اعتماداً على الحالة الذّهنية

وذلك من خلال حديثه عن المؤهلات العقلية، بحيث فهم جاك أن جيل تريد التّفاحة وبأنّها جائعة، وذلك انطلاقاً من العمليات الذّهنية، ومن ثمّ نستطيع الجزم أنّ المعارف تتدخل في عملية الفهم، ونصل إلى نتيجة مفادها أنّ لتشومسكي نظرة عجيبة إلى اللغة، ذلك أنّ الإنسان لا يولد خالي الذّهن كما أشارت إلى ذلك السلوكية، التي تؤمن أنّ الإنسان يولد صفحةً بيضاء والمجتمع يكتب عليها ما يشاء، بل يولد الإنسان بقدرات تسمح له باستعمال اللغة.

التداولية والمعرفية

مادامت التّداولية في أبسط تعريفاتها هي مجموعة من الإجراءات والمفاهيم، التي يتمّ من خلالها استعمال اللغة أو الكلام وتأويلها، ورغم لزوم نشأتها لنشأة العلوم المعرفية، فقد كانت لسانية تقترب من السلوكية، وذلك عند كلّ من سورل وأوستين اللذين اعتبرا أنّ تأويل الأقوال يتمّ بطريقة ترميزية، ويكون قصد المخاطب مبثوثاً في الجملة أو القول، وهذا ما أسماه سورل بـــــــ«مبدأ الإبانة،»[١٨] ومعناه أنّ القصد والغرض من الكلام ظاهر على مستوى القول.

وإذا تشبّث سورل بـ(مبدأ ترميزية اللغة)، فإنّ الأمر سيختلف مع جرايس، لاعتماد مبادئه (الكم والكيف والأسلوب والملاءمة) على نظرة معرفية، وتأسيساً على هذه النظرة يكون الكلام مناسباً للمقام، إذا توافرت المعرفة لدى المتكلّم وكان قادراً على التمييز بين المناسب من المنطوقات وغير المناسب منها، وذلك بناء على المعارف المشتركة بين المتكلم والمخاطب، وما يقال عن مبدأ الملاءمة هنا ينطبق على مبدأ الكيف؛ إذ كيف نُميّز بين الصادق من عدمه إذا لم تتوفر لدينا معرفة، وهو ما ينطبق على بقية المبادئ. ومن ثم نشر جرايس بحثاً حول الدلالة ركّز فيه على العمليات الذهنية الاستدلالية؛ أي العمليات التي لم يولها أوستين وسورل أيّ اهتمام يذكر، وبرزت مجهوداته في خوضه مجالاً وإشكالية لم تطرح بعد، ويكون بهذا الصنيع قد أثار قضايا جدّ هامة من قبيل:

- قدرة الإنسان على اكتساب حالات ذهنية، حيث أثيرت قضية التفكير في شيء وقول شيء آخر.
- القدرة على جعل الحالات الذهنية ملكاً للآخرين؛ إذ تبحث في تلقي الخطاب وتأويله.

ويظهر الجانب المعرفي أكثر في عنصر «الاستلزام التخاطبي»، الذي يتمّ الوصول إليه من خلال وبسبب خرق مبدأ من مبادئ «جرايس» (الكمّ، الكيف، الأسلوب، الملاءمة)، التي تضبط التّخاطب المثالي والصريح بين المتحاورين، باعتبارهما ملتزمين دائماً بمبدأ التّعاون المنصوص عليه، فمتى بدا من أحدهما الإخلال بهذه القاعدة أو تلك ظاهرياً، وجب على الآخر أن يصرف كلام محاوره عن ظاهره إلى معنى خفي يقتضيه المقام، والمعنى المصروف إليه حاصل عن طريق الاستدلال من المعنى الظاهر ومن القرائن، وهذا ما يسمّى بـــــ«الاستلزام التخاطبي.»[١٩]

يفضي بنا هذا إلى القول إنّ التّعرّف على مقصد المتكلم يتمّ من خلال عمليات ذهنية، تتدخّل فيها معارف الإنسان، هذا ما حاول جرايس معرفته؛ أي

كيف يتوصل إلى مقاصد المتكلّم، ذلك أنّه يقصد في بعض الأحيان أكثر ممّا يقول، أو يقصد عكس ما يقول، أي ما يريد المتكلّم إبلاغه على نحو غير مباشر، ولكنّه يعرف أنّ السامع قادر على أن يصل إلى المعنى بوساطة أعراف الاستعمال ووسائل الاستدلال، والأمثلة كثيرة في هذا المجال، ذلك أنّه وخلافاً للتصوّر السياقي في تأويل الأقوال، فإنّنا نجد عدداً من المقاربات القائمة على الفرضية التالية: تتحدّد وجوه استخدامنا للغة أثناء التّواصل والخطاب بمبادئ عامة أساسها استدلالات تداولية. وقد أدّى هذا إلى قصر مجال علم الدّلالة على مظاهر صدقية الأقوال، ولم تكن هذه التّقاليد بمعزل عن تحميل الأفعال الكلامية غير المباشرة، والأساليب الخطابية.[٢٠]

ويصل الجانب المعرفي قمّته في التداولية في أهمّ نظرية من نظرياتها، وهي نظرية الملاءمة عند سبربر وولسن *Sperber.D* و *Wilson.D*[٢١]، والتي ظهرت في الثمانينات انطلاقاً من نقد بناء للفرضيات الجرايسية، تندرج ضمن العلوم المعرفية، وتيار الفكر المعرفي الذي ينتمي إليه. كان الهدف منها التوصل إلى التأليف بين العمليات الترميزية والعمليات الاستدلالية، ويرى الباحثان أنّ تأويل الأقوال يوافق نوعين مختلفين من العمليات:

١. ترميزي لغوي
٢. استدلالي تداولي

ومن خلال هذين النوعين، تمّ إخراج التّداولية من دائرة اللسانيات (أصوات، وتركيب، ودلالة)، وأدمج سبربر وولسن نظريتهما في تيار علم النّفس المعرفي، وهو تيار المنظومية التي يمثلها عالم النفس المعرفي «جيري فودور» *Fodor.J*[٢٢]، الذي يرى أنّ اشتغال الذّهن البشري يتمّ بشكل تراتبي،[٢٣] تجري فيه معالجة المعلومة عبر مراحل ثلاث متلاحقة وهي: المحوّلة، النّظام المحيطي، والنّظام المركزي، فعندما يقع حدث ما، فإنّ معطيات الإدراك الحسّي تعالج في مرحلة ترجمتها إلى نسق، بعدها تعالج الترجمة، التي قامت بها المحوّلة بواسطة نظام محيطي، يتمثّل في منظومة مختصّة بمعالجة المعطيات، التي تدركها مختلف الحواس (شمّي، سمعي لغوي)، ويمكن لهذا النّظام من تقديم تأويل أوّلي للمعطيات المدركة تأويلاً ترميزياً، ليتمّ في النّظام المركزي التأويل عن طريق العمليات الاستدلالية. ومن الملاحظ أنّ سبربر وولسن قد أنزلا تداوليتهما ضمن مقاربة جيري فودور بحيث:

١. اللسانيات (علم الأصوات الوظيفي، علم التركيب، علم الدلالة)، هو ما يعادل عند فودور المنظومة المحيطية، وهي تلك المنظومة المختصة بمعالجة المعطيات اللغوية)
٢. التداولية = النّظام المركزي

تُمكِّن المنظومة اللسانية في نظر سبربر وولسن من تأويل أوّلي للقول، وهو تأويل يتحقق في صيغة منطقية، وهو أمر مهمّ لأنّه يفضي إلى المعلومات، التي تشكّل المقدّمات، التي تستخدم في العمليات الاستدلالية لتأويل الأقوال، وهذه المقدّمات توافق المعرفة الموسوعية، وهي مجموع المعطيات، التي تتوافر عند

فرد معيّن حول العالم.

وبذلك، يتمّ تأويل الأقوال حسب "سبربر وولسن" من خلال العمليات الاستدلالية ذات المقدّمات:

١. المقدّمة الأولى= الصيغة المنطقية للقول
٢. المقدّمة الثانية= السياق (ويتكوّن من المعارف الموسوعية المتوصل إليها من خلال مفاهيم الصيغة المنطقية للقول بالإضافة إلى المعطيات، التي يمكن استنباطها مباشرة من المقام أو المحيط المادي (المحيط المعرفي).

تحدّث سبربر وولسن عن التواصل الإشاري الاستدلالي بقوله: «وهو أن يُبلغ شخص ما شخصاً آخر بواسطة عمل معيّن مقصده المتمثّل في إبلاغه معلومة معيّنة»،[٢٤] وفي هذه الحالة لا يقتصر التواصل على استخدام القول بل يوجد كلّما بلغنا شيئاً وكان مقصد التواصل واضحاً، كما جعلا مبدأ الملاءمة أساس اشتغال عمليات الاستدلال بعد أن قاما بتعديله واكتسب مفهوماً جديداً، بحيث كل قول يُولِّد لدى المخاطب المناسبة الخاصة به، فهو ليس مبدأً معيارياً يفرض على القائل أن يتلفظ بأقوال مناسبة، إنّما هو مبدأ تأويلي يستعمله المخاطب أثناء عملية التأويل، وهو محرّك العمليات التداولية؛ إذ المعلومات المجمعة تحت مفاهيم الصيغة المنطقية يختار المخاطب بعضاً منها ويقصي بعضاً آخر، وبهذا يسمح مبدأ مناسبته بانتقاء المعلومات، التي تعدّ جزء من السياق عند تأويل الأقوال.

كما بيّن سبربر وولسن أنّ النّشاط الذّهني يهدف إلى بناء أو تغيير تمثّل العالم، وضرب مثالاً على ذلك بامرأة تتنزّه في مكان مشمس، في بلد تكثر فيه العواصف الخطيرة، وأثناء نزهتها يتقدّم إليها شخص خبير بأحوال تلك البلدة ويجذبها من كمّ قميصها مشيراً إليها بإلحاح إلى السّحُب، قاصداً بذلك إخبارها بخطورة عواصف تلك البلدة،[٢٥] فهنا حقّق المتكلّم قصداً ظاهراً دون أن يتلفّظ بكلمة «خطر طبيعي»، أمّا الجانب المعرفي الاستنباطي الذّهني فيتمثّل في فهم المرأة أن السّحب سبب في وجود العواصف، التي هي سبب الخطر، وفي هذه الحالة يتعيّن عليها الوقوف في مكان آمن، وهذا الاستنتاج كان نتيجة عمليات ذهنية استنباطية، وما أدى إليها هو الإشارة وليس القول.

إنّ تحديد البنوية لماهية اللغة، هو الذي أضلّ الباحثين عن عدم إدراك البعد الحقيقي للغة، وهو الذي مهّد الطريق واسعاً لانتشار التداولية باعتبارها مزيجاً مترابطاً من السياق الخارجي، ومجموع العمليات الذّهنية لدى المتخاطبين. تعود نشأة التداولية المعرفية إلى المنظّرين الأوائل أمثال أوستين وسورل وجرايس.[٢٦] في أعمال أوستين، مثلاً، تجسّدت تأدية العمليات الإنجازية من حيث هي نتيجة لما يحدث من عمليات في ذهن المتكلّم، فالقيام بفعل

ويظهر الجانب المعرفي أكثر في عنصر "الاستلزام التخاطبي"، الذي يتمّ الوصول إليه من خلال وبسبب خرق مبدأ من مبادئ "جرايس" (الكمّ، الكيف، الأسلوب، الملاءمة)، التي تضبط التّخاطب المثالي والصريح

الأمـر يعني أنّنـا نبني فـي أذهاننا صيغة لغويـة، وهي في الحقيقة ناتجة عن معرفتنا بظروف المأمور وبقدرتنا على إصدار الأمـر، وكذلك على معرفتنا بشـروط إنجاز فعل الأمـر، فالأمر فعل ذهني قبـل أن يكون فعـلاً اجتماعياً، وذلـك لأن الاسـتنتاجات التـي جعلـت المتكلّم يصدر فعل الأمر هي نفسها، التي جعلت المأمور يذعن له.[٢٧]

أمّـا إذا نظرنـا إلـى أفعـال سـورل الكلاميـة، نجد أنّ المفاهيـم التـي ميّـزت نظرياتـه الكلاميـة طغـت عليهـا الصبغـة الذّهنيـة الدّلالة مـن بعدها الصريح إلـى بعدها التّلميحي، لوجدنا أنفسـنا نفسّـر ذهنياً، وبصفة كلّية هذه العمليـات الذّهنيـة، التـي تتسـبّب في انتقـال الكلام من المباشـرة (التصريـح)، إلى اللامباشـرة (التلميـح)[٢٨]، كمـا تعتبـر القصدية، التي تحـدّث عنها كلّ من أوسـتين وسـورل ظاهرة ذهنية، فلو توقفنا عند البنية اللغوية، فإنّنا لا يمكـن الكشـف عنها. ويعتبـر جرايس من الفلاسـفة الذيـن أثاروا مـا يدعى بالتداولية المعرفيـة، بحيث أولى عناية بالظواهر الاسـتنباطية والحالات الذّهنية للمتكلّم، وقـدرة هذا الأخير على إسـناد هذه الحـالات، وبالتالي تمكّنه من تأويل أقواله كاملة ومقبولة.

تحـدّث جرايـس فـي مقـال لـه بعنـوان :»المنطـق والمحادثـة» عـام ١٩٧٥م عـن مفهوميـن سـاهما فـي تطـوّر الدراسـات المعرفية، وهمـا الاسـتلزام الخطابي ومبـدأ التّعـاون، الذي يقصـد به حقّ كلّ مـن المخاطب والمخاطَـب فـي الـكلام، وإن وُجـد عـدم التّفاهـم بين المتخاطبيـن، فذلـك يرجـع إلى غيـاب هـذا العنصر أو المبـدأ قصـد التّعـاون، حيث يسـمح له بتـداول صحيح

إنّ تحديد البنوية لماهية اللغة، هو الذي أضلّ الباحثين عن عدم إدراك البعد الحقيقي للغة، وهو الذي مهّد الطريق واسعاً لانتشار التداولية باعتبارها مزيجاً مترابطاً من السياق الخارجي

وعقلانـي للملفوظـات. يـرى جرايـس التواصـل فـي طريقتين: الأولى تتمثّل في الدلالة الوضعية المحتواة في الجملـة، والثانية تتمثّـل في الدّلالة غيـر الطبيعية، والتي يتمّ التّوصل إليها عن طريق الاستلزام التّخاطبي. ولشرح هذه المسائل، يستند جرايس على هذا المثال:[٢٩]

١. الإنجليز كلّهم شجعان
٢. جون إنجليزي، إذن هو شجاع
٣. جون إنجليزي، إنّه شجاع

تفهـم الجملـة الأولـى مـن خـلال الدّلالـة الوضعية ولا تحتوي على اسـتلزام، في حين تعتبـر الجملة الثانية اسـتلزاماً، ومبـرّره هو الرابـط «إذن»، بينما يكمن سـبب الاسـتلزام في الجملـة الثالثة في قوانيـن الخطاب، التي اهتـدى إليهـا، إذ لا وجـود لعنصـر وضعـي يكون سـبباً للوصول إلى الاستنتاج أنّ الإنجليز أناس شجعان. يؤكّد المؤلفـان علـى قواعد المحادثة في كونها ليسـت قواعد تُراعـى، يجـب السـير وفقها، وإنّمـا هي كذلـك، قواعد تسـاعد على تأويـل الخطاب، فهي تنخـرط بوضوح في التيـار المعرفـي، فقواعـد المحادثة لا تسـتند إلى مجرّد القدرة على اكتساب حالات ذهنية، بل تستند إلى القدرة

على إسنادها إلى المتلقي. وبذلك يمكن القول إن كلّ نظرية تداولية تحتكم إلى جملة من الشروط يلخصها جاك موشلر وآن ربول في:[٣٠]

- ينبغي عليها أن تكون وظيفية تمثيلية
- ينبغي عليها توضيح عمليات التأويل التي تنصّ عليها من خلال قواعد الاستدلال المستعملة، والمقاييس التي استندت إليها في اختيار المقدّمات، وتحديد أيّ مقياس يعتبر مقبولاً لإقرار إيقاف عملية الاستدلال.
- على التداولية تحديد الطريقة التي توصلنا إلى المعلومة، وتحديد كيف يتمّ تمثيلها، وما هي العمليات المصاحبة لها.

أردنا من خلال هذا العمل أن نفتح الباب على مجال ندّعي إدراكه بالقدر الكافي، وهو مجال استعمال اللغة، أو ما يدعى بالتداولية *Pragmatique*، حيث انكبّ كثير من الباحثين العرب على معرفة جذوره ومرجعياته اللسانية والفلسفية، بما انبثق عنهما من مباحث لا تزال بحاجة إلى الكشف والتّدقيق، ولا سيما أنَّ الاستعمال طال اقتحام الذّهن البشري، بما يمكن أن تتمّ فيه العمليات التي تسمح للإنسان بالإنتاج والفهم والتأويل، ثمّ السؤال كان دائراً حول معرفة كيفية اشتغال الذهن البشري، من حيث البحث عن المراحل والمستويات، التي تتجسّد فيها اللغة باعتبارها محرك آلة الاستقبال والإيصال، والولوج إلى العمليات الأكثر تعقيداً حين العودة إلى الاستدلال والاستلزام، والحجاج، وهو ما أرادت التداولية المعرفية الإلمام به من حيث البحث في المعرفة البشرية العجيبة والغريبة، بما تفرضه من فرضيات وأفكار بحاجة إلى التمحيص والتدقيق. فهنا نقف موقف الباحث عن المعلومات، التي تضيء ذلك الحيز المظلم من التكوين البشري، حتى نفسّر به ما نصل إليه من أدوات لفهم الأفعال الكلامية، ومتضمنات الأقوال.

المصادر والمراجع

١- الجاحظ، **البيان والتبيّن**، اعتناء الشيخ زكريا عميرات، ط١، دار الفكر العربي للطباعة والنشر، ج١، بيروت ٢٠٠٠.

٢- الأزهر الزناد، في مصطلح العرفنة ومشتقاتها، من موقع:
http://lazharzanned.blogspot.com/2012/04/blog-post_22.html

٣- عمر بن دحمان، "المعرفة/ الإدراك/ العرفنة، بحث في المصطلح"، مجلة الخطاب، منشورات مخبر تحليل الخطاب، جامعة تيزي وزو، ٢٠١٣.

٤- أحمد المهيمن، **نظرية المعرفة عند ابن رشد وابن عربي**، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، ط١،الإسكندرية،٢٠٠١.

٥- ميلكا، إفيتش، **اتجاهات البحث اللساني**، ترجمة عبد العزيز مصلوح ووفاء كامل فايد، ط٢، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ٢٠٠٠.

٦- مصطفى الحدّاد، **اللغة والفكر وفلسفة الذهن**،

منشورات جمعية الأعمال الاجتماعية والثقافية بكلّية الآداب بتطوان، المغرب ١٩٩٥.

٧- عبد الإله سليم، **بنيات المشابهة في اللغة العربية، مقاربة معرفية**، ط١، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء ٢٠٠١.

٨- أنجوس جيلاني، أوسكار زاريت، **الذّهن والمخّ**، ترجمة جمال الجزيري، مراجعة وإشراف وتقديم إمام عبد الفتّاح إمام، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ٢٠٠١.

٩- توماس سكرفيل، **علم اللغة النّفسي**، ترجمة عبد الرحمان بن عبد العزيز العبدان، المركز السعودي للكتابة، الرياض ١٩٨٨.

١٠- الأزهر الزنّاد، **نظريات لسانية عرفنية**، ط١، دار محمد علي للنشر، تونس٢٠١٠.

١١- نعوم تشومسكي، **آفاق جديدة في دراسة اللغة والعقل**، ترجمة عدنان حسن، ط١، دار الحوار للنشر والتوزيع، دمشق ٢٠٠٩.

١٢- حسان الباهي، **الذّكاء الصناعي وتحدّيات مجتمع المعرفة -حنكة الآلة أمام حكمة العقل-**، إفريقيا الشرق، المغرب ٢٠١٢.

١٣- نعوم تشومسكي، **المعرفة اللغوية، طبيعتها وأصولها واستخدامها**، ترجمة وتعليق محمد فتيح، ط١، دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٩٣.

١٤- مصطفى النشار، **نظرية المعرفة عند أرسطو**، ط١، دار قباء، القاهرة ٢٠٠١.

١٥- عادل السكري، **نظرية المعرفة من سماء الفلسفة إلى أرض المدرسة**، تقديم حامد عمّار، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة ١٩٩٩.

١٦- آن ربول، جاك موشلر، **التّداولية اليوم، علم جديد في التواصل**، ترجمة سيف الدين دغفوس ومحمد الشيباني، ط١، دار الطليعة للطباعة والنّشر، بيروت ٢٠٠٣.

١٧- طه عبد الرحمان، **في أصول الحوار وتجديد علم الكلام**، ط٢، المركز الثقافي العربي، بيروت ٢٠٠٠.

١٨- آن ربول وجاك، جاك موشلر، **القاموس الموسوعي للتداولية**، ترجمة مجموعة من الأساتذة الباحثين، إشراف عزّ الدين المجدوب، دار سيناترا، المركز الوطني للترجمة، تونس٢٠١٠.

١٩- عمر بلخير، **تحليل الخطاب المسرحي في منظور النّظرية التّداولية**، منشورات الاختلاف، الجزائر ٢٠٠٣.

20- Voir : J. Searle, Sens et expression, Editions Le Seuil, Paris 1972.

21-Rastier. F, Linguistique et recherche cognitive, Histoire, Epistémologie ; Langage Revue 11-I, 1989.

22-D.Sperber, D.Wilson, La Pertinence, communication et cognition, Editions de Minuit, 1989.

الهوامش والإحالات

* الدكتور ذهبية حمو الحاج، أستاذة محاضرة من جامعة تيزي وزو، الجزائر، مهتمّة بقضايا اللسانيات وتحليل الخطاب، صدر لها مجموعة من الأعمال في هذا التّوجّه، منها كتاب **لسانيات التلفظ وتداولية الخطاب**، وكتاب **التداولية واستراتيجية التواصل**.

١ – أحمد المهيمن، **نظرية المعرفة عند ابن رشد وابن عربي**، ط١، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية ٢٠٠١، ص١١.

٢ كان بلومفيلد مقتنعاً بأنّ احتواء المعنى في اللغة قد يتضمّن خطر فتح المجال للمعايير الذّاتية في التّحليل، فاقترح أن نترك المعنى جانباً، إذا أردنا التأسيس لمنهج لساني صارم، انظر: ميلكا، إفيتش، **اتجاهات البحث اللساني**، ترجمة عبد العزيز مصلوح ووفاء كامل فايد، ط٢، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ٢٠٠٠، ص٢٧٩.

٣ – مصطفى الحدّاد، **اللغة والفكر وفلسفة الذهن**، منشورات جمعية الأعمال الاجتماعية والثقافية بكلّية الآداب بتطوان، المغرب ١٩٩٥، ص٠٢.

٤ – عبد الإله سليم، **بنيات المشابهة في اللغة العربية، مقاربة معرفية**، ط١، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء ٢٠٠١، ص٠٥.

٥ – أنجوس جيلاني، أوسكار زاريت، **الذّهن والمخّ**، ترجمة جمال الجزيري، مراجعة وإشراف وتقديم إمام عبد الفتّاح إمام، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ٢٠٠١، ص٥.

٦ – ينظر: توماس سكرفيل، **علم اللغة النّفسي**، ترجمة عبد الرحمان بن عبد العزيز العبدان، المركز السعودي للكتابة، الرياض ١٩٨٨، ص١٥.

٧ – ينظر: الأزهر الزنّاد، **نظريات لسانية عرفنية**، ط١، دار محمد علي للنشر، تونس ٢٠١٠، ص٢٤.

٨ – نعوم تشومسكي، **آفاق جديدة في دراسة اللغة والعقل**، ترجمة عدنان حسن، ط١، دار الحوار للنشر والتوزيع، دمشق ٢٠٠٩، ص٣٨.

٩ ألان ماتيسون تورينغ A. M. Turning، عالم رياضيات بريطاني (١٩١٢–١٩٥٤)، صاحب اختراع متميّز، متمثل في الصياغة النظرية لآلة حساب كونية، سُميت باسمه، وهي آلة تقوم بتقليد معالجة المعلومات، كما كان الذّكاء الاصطناعي من اهتماماته الأساسية. قام ألان تورينغ وهو شاب متقن للرياضيات في ١٩٣٥م، بإيجاد إجابة للمشكلة التي طرحها هيلبرت Hilbert في ١٩٢٨م، ومقاله حول الأعداد القابلة للاحتساب بتطبيق طريقة Entscheidungproblem. وهذه الأعداد يمكن أن تكون محسوبة بآلة قادرة على قراءة الرّموز وكتابتها على متوالية محدّدة من الخانات، وذلك حتّى يتمكن من قراءة بعض الرّموز على أنّها وجهات للتغيير، وبهذا الصنيع يؤكد تورينغ على إمكانية صنع مثل هذه الآلة. ينظر:

Rastier. F, Linguistique et recherche cognitive, Histoire, Epistémologie;

Langage Revue 11-I, 1989, p15.

وتتمثّل التّجربة في اختبار الذّكاء الصناعي المؤسس على فكرة تقليد المحادثة البشرية، ويتمثّل الاختبار في وضع الإنسان في مواجهة لغوية مع الحاسوب، وفي مواجهة إنسان مع إنسان أعمى: فإذا كان الإنسان الذي يبادر إلى المحادثات غير قادر على تحديد الآلة من بين مخاطَبيه، فإنّه يمكن اعتبار أنّ الآلة قد اجتازت الاختبار بنجاح.

١٠ – حسان الباهي، **الذّكاء الصناعي وتحدّيات مجتمع المعرفة – حنكة الآلة أمام حكمة العقل–**، إفريقيا الشرق، المغرب ٢٠١٢، ص٣٧.

١١ – نعوم تشومسكي، **المعرفة اللغوية، طبيعتها وأصولها واستخدامها**، ترجمة وتعليق محمد فتيح، ط١، دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٩٣، ص٤٤.

١٢ – ينظر: ميلكا، إفيتش، **اتجاهات البحث اللساني**، ترجمة عبد العزيز مصلوح، ووفاء كامل فايد، ط٢، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ٢٠٠٠، ص٣٠٩.

١٣ – مصطفى النشار، **نظرية المعرفة عند أرسطو**، ط١، دار قباء، القاهرة ٢٠٠١، ص٣٤.

١٤ – عادل السكري، **نظرية المعرفة من سماء الفلسفة إلى أرض المدرسة**، تقديم حامد عمّار، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة ١٩٩٩، ص٢٧.

١٥ –ينظر : عمر بن دحمان، "المعرفة/ الإدراك/ العرفنة، بحث في المصطلح"، ص١٥.

١٦ – الأزهر الزناد، **نظريات لسانية عرفنية**، ط١، منشورات الاختلاف، الجزائر ٢٠١٠، ص١٥.

١٧ – المرجع نفسه، ص١٥.

١٨ – آن ربول، جاك موشلر، **التّداولية اليوم، علم جديد في التواصل**، ترجمة سيف الدين دغفوس ومحمد الشيباني، ط١،

دار الطليعة للطباعة والنّشر، بيروت ٢٠٠٣، ص٤٣.

١٩ – طه عبد الرحمان، **في أصول الحوار وتجديد علم الكلام**، ط٢، المركز الثقافي العربي، بيروت، ٢٠٠٠، ص٩٥.

٢٠ – ينظر: آن ربول وجاك، جاك موشلر، **القاموس الموسوعي للتداولية**، ترجمة مجموعة من الأساتذة الباحثين، إشراف عزّ الدين المجدوب، دار سيناترا، المركز الوطني للترجمة، تونس ٢٠١٠، ص٢١١.

٢١ – ينظر:

D. Sperber, D. Wilson , La Pertinence, communication et cognition, Editions de Minuit, 1989.

٢٢ § جيري فودور، فيلسوف وعالم نفس أمريكي، من مواليد ١٩٣٥م، باحث في مخبر متخصّص في الإلكترونيات، مدرّس للفلسفة وعلم النّفس منذ سنة ١٩٦٣م، في معهد مساشوستس للتكنولوجيا، فقد كان من الباحثين، الذين أبرزوا مفهوم المنظومية الذي كان متداولا في الدراسات اللسانية النفسية، وسماه بـ Modularity of Mind، وذلك في ١٩٨٣م.

٢٣ فسّر الدكتور عمر بلخير والدكتورة بوكرمة فاطمة الزهراء ذلك في مقال لهما بعنوان:

Linguistique et cognition, un bref aperçu!

٢٤ – نقلا عن آن ربول، جاك موشلر، **التّداولية اليوم، علم جديد في التواصل**، ص٨٠.

٢٥ – ينظر: آن ربول، جاك موشلر، **التّداولية اليوم، علم جديد في التواصل**، ص٨١.

٢٦ – ينظر: عمر بلخير، **تحليل الخطاب المسرحي في منظور النّظرية التّداولية**، منشورات الاختلاف، الجزائر ٢٠٠٣، ص٣٥.

٢٧ – المرجع نفسه، ص٣٧.

28 -Voir : J. Searle, Sens et expression, Editions Le Seuil, Paris 1972, p71-77.

٢٩ – ينظر: آن ربول، جاك موشلر، **التّداولية اليوم، علم جديد في التواصل**، ص٥٧.

٣٠ – نفسه، ص٦٦.